تحرير بيت المقدس

لم يسبق للفرنجة مذ وطأت اقدامهم بلاد العرب ، ان عانوا مثل الخسارة الفادحة التي كابدوها في موقعة حطّين . وقد ضاعف من اهميتها ونتائجها ، اسر ذلك الفريق الكبير من الامراء والقواد والفرسان وفي طليعتهم الملك غي دي لوزينيان وأخيه ، حتى لم يبق لديهم من يصلح بعد ذلك لولاية امورهم وقيادة جيوشهم . ومن ثم لم يكن تقدم صلاح الدين الايوبي بعد ذلك ، تقدماً سريعاً في جهات فلسطين وجنوب لبنان ، حرباً بالمعنى الصحيح بل كان تتمة لما احرزه من نصر مبين في يوم حطين ، إذ كثيراً ما كانت القلعة او المدينة التي يشخص اليها تستسلم لمجرد وصوله ، لضعف دفاعها وغياب قادتها ، ولما أصبح لاسمه من الرهبة في قلوب الفرنجة ، ولكنها رهبة يمازجها الاعجاب والاجلال لما اتصفت به فتوحاته من النبل والشهامة والمروءة .

تسلم السلطان حصن طبرية وأوصل زوجة ريمون الى حيث ارادت بتجلة واحترام ، وسار بعد ذلك نحو عكا فاحتلها وأقام فيها قليلاً لتنظيم شؤونها ، بينما كانت سراياه تزحف على الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والفولة وسبطية وتبنين فتحتلها جميعاً . وبينما

obeikandi.com

أخوه الملك العادل يزحف من مصر اجابة لطلبه فيستولي على مجدل يافا ويافا . ثم اتجه الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره منها الى بيروت فسلمت بعد حصار قصير . وكان صاحب جبيل معتقلاً مع غيره من امراء الفرنجة بدمشق ، فلما احتل العرب بيروت أرسل الى السلطان يطلب منه اطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيـــل ومن فيها من اسرى العرب ، فقبل السلطان ذلك ، واطلق سراحـــه وتسلم منه المدينة .

لم ينم صلاح الدين منذ موقعة حطين إلا لماماً ، ولم يركن الى راحة ، بل تابع انتصاراته بحكمة وجرأة وبراعة ، حتى استطاع ان يستولي في مدة قصيرة على جميع المدن الكبيرة التي يحتلها الفرنجة في فلسطين وجنوبي لبنان ، ولم يبق بيدهم منها إلا صور وعسقلان وبيت المقدس . فأما صور فقد تهاون في مهاجمتها فتجمع فيها الفرنجة من كل صوب ، ثم اقبل المركيز كونرد (المركيس) من القسطنطينية ومعه الاموال الطائلة ، فحفر فيها الخنادق وأنشأ الابراج وجدد الاسوار ودرّب الجنـــد ، حتى أصبحت مركزاً للفرنجة يفدون اليه ويحتمون به ويعتمدون عليه كثيراً ، ثم اضحت قاعدة للحملة الثالثة . وقد انتبه السلطان الى تهاونه هذا بعد فوات الاوان ، واراد ان يحتال على المركيز ليسلمه المدينـــة ، فاحضر أباه وكان اسيراً في دمشق ، وعرض عليه ان يفك اسره مقـــابل تسليمه المدينة وهدّده بقتله امام عينيه إن رفض طلبه ، فاجاب المركيز انه لا يتخلى عن حجر واحد من حجارة صور لينقذ به أباه ، وان والده هذا قد عاش طويلاً فيكفيه ما عمّر وليقتله السلطان اذا

شاء . فأعاد صلاح الدين أبا المركيز الى مكانه من الأسر في دمشق، وتابع سيره الى عسقلان فحاصرها هو واخوه العادل . وقد اراد ان يعيد تجربته مع حامية هذه المدينة ، فأحضر الملك غي ، وأبلغ الحامية انه مستعد لاطلاق سراحه ان سلمت له،فأبت ذلك ورفضت مساعي غي نفسه فأعاده الى الأسر ثم افرج عنه بعد بضعة شهور اعترافاً بمساعيه هذه،وشدد الهجوم على المدينة فاستسلمت بعد بضعة ايام ، ثم بعث بسراياه في انحائها فاستولت على الرملة والداروم وغزة والخليل وبيت لحم .

حدث ذلك كله في غضون شهرين كان صلاح الدين ينتقل خلالهما من ظفر الى آخر ، وكأنه يسابق في ذلك الزمان . وفي نهاية هذه المرحلة القصيرة الحافلة بالانتصارات المعجزة ، اصبحت طريق القدس مفتوحة امامه ، فسار اليها بجيشه وايمانه ، وكلاهما قوي عظيم ، فبلغها في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ (٢٠ ايلول سنة ١١٨٧) إلا انه لم يشأ مهاجمتها فوراً لحرمتها لديه ، ففاوض حاميتها على التسليم متعهداً باحترام الاماكن المقدسة واحترام شعائر الديانة المسيحية وعواطف المسيحيين . وكان كثير من جنود الفرنجة قد لاذوا بالقدس كما لاذ غيرهم بمدينة صور ، الا انهم كانوا يفتقرون الى القادة المدربين لأسر قادتهم في موقعة حطين ، واتفق ان باليان دي ابيالين أمير الرملة ، كان اسيراً لدى صلاح الدين ، فاستأذنه في الرحيل الى القدس ليعود بامرأته واولاده ، واقسم ان لا يمكث فيها الا ليلة واحدة ، فسمح له السلطان بذلك ، فلما وصل باليان الى القدس ناشده كبار الفرنجة ان يبقى بينهم ويقود

جندهم ويحمي عاصمتهم ، فقبل طلبهم متناسياً العهـــد الذي قطعه على نفسه ، ولما اقبل صلاح الدين وفاوضهم على التسليم رفضوا ان يجيبوه الى طلبه اعتماداً على الآمال التي عقدوها على باليان .

طاف السلطان بمدينة القدس عدة ايام ، ثم اتخذ جبل الزيتون مركزاً لجنده ، لانه وجد اسوار المدينة في هذه الناحية أضعف منها في اية ناحية أخرى ، فهي اذن اصلح مكان لمهاجمتها منه . ثم نصب عليها المجانيق ، وضايقها بالزحف والقتال ، حـــتى اذا كان اليوم السابع والعشرون من رجب سنة ٥٨٣ (٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧) حمل العرب عليها حملة رجل واحد ، فازالوا الفرنجة عن مواقعهم ، واضطروهم الى دخول المدينة ، وزحفوا الى الخندق فاجتازوه ، ووصلوا الى السور فنقبوه ، تحت وابل من قنابل الفرنجة وسهامهم . ولما أيقن هؤلاء بان القدس صائرة الى السقوط الحتم رغم بسالتهم واستماتتهم في الدفاع عنها ، اجمعوا رأيهم على طلب الامان فارسلوا باليان الى السلطان يفاوضه في الصلح .

قال صلاح الدين لباليان : « وهل لمدينة وقعت في الاسر ان تطلب شروطاً للصلح ؟ » فقال الرسول : « ايها السلطان ! ان في المدينة خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم الا الله ، وهم انما يفترون عن القتال رجاء الامان ، ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فان رأينا الموت لابد منه ، فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ، ونحرقن اموالنا ومتاعنا ، ولا نترككم تغنمون ديناراً او درهماً واحداً ، ولا تأسرون ولا تسبون رجلاً او امرأة او طفلاً ، فاذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة فخربناها

وألحقنا المسجد الاقصى وغيره من الاماكن المقدسة بها ، ثم بعد ذلك نقتل من عندنا من اسرى المسلمين وهم زهاء خمسة الاف اسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم نخرج اليكم في جمعنا نقاتلكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه ، فلا يُقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله فنموت أعزاء او نظفر كرماء ! »

فكر صلاح الدين طويلاً ، واستشار قومه ، ثم اجاب المدينة الى طلبها ، على ان يخرج منها الفرنجة سالمين في مدة اربعين يوماً ، وان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين . فقبل الفرنجة هذا الشرط ، وبدأوا يغادرون القدس منذ ذلك اليوم نفسه ، والسلطان وجنده ينتظرون في ظاهرها ، وشرطته تحفظ الامن في داخلها ويقول « استيفن سن » ان صلاح الدين قد سمح لعدد كبير من الفرنجة بالرحيل من غير فدية ، وأذن لكل من اراد الذهاب بأن يحمل معه ما شاء من المتاع والمال . ويثني المؤرخون الغربيون جميعاً على هذا الموقف النبيل الذي وقفه ، ويتحدثون باعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين من الفرنجة وعن اكرامه النساء ورأفته بالاطفال ورعايته للضعفاء منهم . ويشهدون بان جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة ، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير ، أي أمر من الامور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على ايدي الجنود المنتصرين ، والتي وقع كثير منها لما احتل الفرنجة القدس قبل ذلك بثمانية وثمانين عاماً ، مما رواه ستيورات مل ورواه ميشود في تاريخه عن الحروب الصليبية .

ومن اروع ما يروونه انه لما خرجت الملكة سيبل وبالغ السلطان في اكرامها واحترامها وبعث بها الى زوجها غي السجين بقلعة نابلس حيث مكثت في ضيافته حتى اطلق سراحهما معاً ، خرجت اليه طائفة كبرى من النساء وقلن له : « ايها السلطـــان ! أتراانا الآن راحلات عن هذه الديار ونحن بين زوج او ام او ابنة لاولئك الجند الذين ما يزالون في اسرك؟ ونحن الان نغادر هذه الدار الى الأبد، وهؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنا في حياتنا وسلاحنا في ايامنا ، فاذا فقدناهم فقدنا الحياة ، اما اذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنــا النعيم وخففت بذلك آلامنا وازحت بؤسنــا وأبعدت عنا شقاءنا ، فإنا لا نكون على ظهر هذه الارض من غير مساعد اوعائل . » فتأثر السلطان لقولهن ، واطلق سراح ابناءهن وازواجهن وآباءهن جميعاً ، وعوّض اللاتي مات اولياؤهن مالا كثيراً ، وجدد الامر على عماله بأن يحسنوا معاملة من بقي لديهم من الاسرى .

ومن حق التاريخ ان نقول نقلاً عن المؤرخين الانكليزيين ستيورات مل وستانلي لين بول ، ان ابواب طرابلس وانطاكية اللتين كانتا ما تزالان في ايدي الفرنجة ، قد اقفلت في ابواب هؤلاء المهاجرين « فساروا على وجوههم في بـلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب » . أما من بقي من الفرنجة في القدس فقد رعاهم صلاح الدين وأحسن اليهم . وأما المسيحيون العرب من سكانها فقد وسّع لهم في املاكهم ، ومنحهم من الحرية ما كانوا يتمتعون به في العهود العربية السالفة شأنهم في جميع انحاء بلاده .

الحملة الصليبية الثالثة

أقام صلاح الدين الايوبي في بيت المقدس شهراً كان في خلاله موضوع احتفال السكان وتمجيد الشعراء وتهنئة الامراء من جميع الانحاء ، وكان شغله الشاغل تنظيم شؤون المدينة ، وتأمين السلام والحرية لجميع ابنائها . ثم اخذ يستعد لمهاجمة صور لعلمه انه إن اخر أمرها اشتد . ولكن هذه المدينة كان قد اصبح لها من المنعة بما أنشأ فيها المركيز كونرد من أسباب الدفاع ، وبما تجمع فيها من اجناد الفرنجة الهاربين من كل مكان ، ما جعل الاستيلاء عليها امراً عسيراً جداً ، إن لم يكن مستحيلا . فظل ينازلها بضعة اسابيع من البر والبحر ، دون طائل ، حتى هجم الشتاء وصعب القتال ، فطلب قواده منه ان يؤجل محاصرة هذه المدينة الى اجل آخر ، ويأذن لهم بالعودة الى رؤية اهلهم واولادهم . وقد تألم لهذا الطلب كثيراً ، وتمنى لو استطاع المضي في حصار صور حتى يستولي عليها مهما كلفته من جهود وتضحيات ، ولكنه لم يكن ليريد إرغام قواده على الحرب وهم لها كارهون ، ففك الحصار ورحل الى عكا فقضى فيها فصل الشتاء ، ثم دعا بهاء الدين قراقوش وكلفه القيام بتحصينها ، وغادرها الى دمشق فجهز جيشاً كبيراً وسار به في شهر

ربيع الاول سنة ٥٨٤ (ايار سنة ١١٨٨) صوب طرابلس وانطاكية ، فاستولى على طرطوس وفيها اطلق سراح الملك غي بعد ان أقسم له ان لا يعود الى محاربته ابداً . ثم احتلّ مرقب وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون وسرمينية وبزرية ، وقد اسر امير بزرية وافراد اسرته ثم اخلى سبيلهم وارسل معهم من اوصلهم الى انطاكية ، وكانت بينهم عروس أسر جنوده عريسها فأمر بردّه اليها . ولما استولى على درب ساك وبغراس ، واصبح على مقربة من انطاكية ، خافه اميرها وناشده ان يهادنه ثمانية اشهر ، وكان صلاح الدين قد شعر بتبرم جنوده لكثرة ما يقودهم اليه من المعارك ، فقبل الطلب وعقدت الهدنة بينهما .

عاد صلاح الدين الى حلب فقضى بضعة ايام بين اهله واولاده ، ولكم كان يود لو تطول هذه الايام السعيدة ، ولكن الجهاد كان يدعوه الى غمراته ، ولم يكن هذا الفارس المغوار ليؤثر في الجهاد شيئاً . ومن ثم نراه يسرع الى دمشق فيصلها في النصف الثاني من شعبان سنة ٥٨٤ (٢٠ تشرين الاول سنة ١١٨٨) ليتابع منها فتوحاته ، وكأن هناك دافعاً خفياً يحثه على الاسراع وكسب الوقت ، ولكن جيشه لا يحس هذا الدافع وقد سئم الحروب المتواصلة . فيسرح اولئك الجنود ، ويسير الى صفد بحرسه وحده ، فيبلغ ضاحيتها في مساء بارد تعصف فيه الرياح من كل جانب ، ولكنه يأبى ان يغمض له في تلك الليلة جفن قبل ان ينصب مناجيقه الخمسة ، فلم يطلع الصبح حتى كان قد اقام حول المدينة آلات الدمار وضرب الحصار عليها . وقد طال ذلك الحصار شهراً سلمت المدينة

في نهايته ، فانتقل الى حصار الكوكب ولبث ينازلها تحت سيل الامطار وفي غمرة الاوحال حتى سلمت في منتصف ذي القعدة سنة ٥٨٤ (اوائل كانون الثاني سنة ١١٨٩) . وفي تلك الاثناء بلغه سقوط الكرك بيد أخيه العادل ، بعد ان حاصرها حصاراً شديداً اضطرّ اهلها من وطأته الى أكل لحوم الدواب .

استبشر السلطان باستيلائه على تلك الحصون التي كانت عقبة كبرى بين مصر والشام ، وذهب الى القدس فتفقد شؤونها وتفقد حصونها ايضاً . فقد كان يحس ان ثمة زوبعة توشك ان تهب في بلاده . وقد علم ان الملك غي قد حنث بيمينه واخلف الوعد الذي قطعه له ، فلم يسافر الى اوربا وإنما ذهب الى صور للعمل مع اميرها كونرد ، ثم تنافس الاثنان على الزعامة فغادرها الى طرابلس وعمد هناك الى جمع الجنود وتدريبهم . كذلك علم أن اوربا قد ضجت لسقوط بيت المقدس في يده فتنادت الى حملة صليبية ثالثة ، كما ضجت يوم سقطت الرُها في يد زنكي منذ اربعين عاماً فتنادت الى حملة صليبية ثانية ، وقد بلغ من اهتمام ملوك اوربا هذه المرة بالحرب الجديدة التي اعلنوها على الشرق انهم فرضوا على كل من لم يرغب التطوع فيها أو تعذر عليه ذلك ، ان يدفع عُشر مداخيله مع عشر ثمن املاكه المنقولة ، وقد سموا هذه الضريبة « العشور الصلاحية » رمزاً لانتصار صلاح الدين عليهم ، وحرم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها .

ولما اطمأن السلطان على أحوال القدس ومناعة حصونها ، خرج الى مرجعيون وعسكر فيها لمراقبة حركات الفرنجة بنفسه . غير

ان هذا الرجل الذي خلق للكفاح والطعان ، لم يكن ليستطيع الانتظار الطويل ، فاغتنم فرصة وجوده في تلك الناحية وحاصر الشقيف ، فتعهد صاحبها بتسليمها بعد ثلاثة اشهر ثم لم يف بوعده ، فترك صلاح الدين حولها طائفة من جنده ظلت تحاصرها حتى استسلمت بعد شهور طويلة، وانحدر هو الى عكا لزحف الفرنجة اليها .

ذلك ان غي كان قد أنشأ في طرابلس جيشاً جراراً وذهب به الى صور فرفض المركيز كونارد ان يسمح له بدخولها ، فاضطر الى الاقامة في ضاحيتها حيناً من الزمن ، واتفق ان مرت من هناك شرذمة من العرب فنازلها وغلبها ، فشجعه ذلك على السير الى عكا. فلما علم كونرد ببغيته خشي ان يستأثر منافسه بافتتاح هذه المدينة، فلحقه بجيش لجب ، واشترك الاثنان في ضرب الحصار عليها . وكان السلطان قد اغفل شأن غي ومن معه لما خيم في جوار صور ، كما تهاون بشأن صور واحتشاد الفرنجة فيها وإقبالهم اليها من جميع المدن التي تخلوا عنها ، فعظم أمر غي ، وعظم أمر صور ، وكان من نتائج ذلك محاصرة عكا براً وبحراً.

هرع صلاح الدين لانقاذ عكا وفي عزمه مهاجمة الجيوش التي تحاصرها والقضاء عليها ، فوجد هذه الجيوش قد سبقته الى احتلال الاماكن المناسبة والتحصن فيها، فاقام غير بعيد عنها ، واخذت الامداد تصل الى الفريقين ، ثم هاجمهم بمن معه دفعة واحدة في اصيل اليوم الثاني من شعبان سنة ٥٨٥ (١٥ ايلول سنة ١١٨٩) فازاحهم قليلاً عن اماكنهم ، وشق طريقاً الى باب المدينة فدخلها قسم من جيشه ، وعاد بمن بقي معه الى معسكره لمعاودة القتال في اليوم التالي ،

ولكن الفرنجة رفضوا منازلتهم في ذلك اليوم والايام التي تلته ، ولبثوا على ذلك شهراً انصرفوا فيه الى تعزيز مراكزهم وتحصين مواقعهم ، ثم انقضوا على خصومهم فشتتوهم وارغموهم على التقهقر وانزلوا بهم خسائر فادحة. وكان الشتاء قد اقبل، وحل شهر رمضان ، ثم جاءت هذه الهزيمة المروعة ، فشجع ذلك كله امراء صلاح الدين على الالحاح عليه بوقف القتال وارجائه الى وقت آخر ، لرغبتهم في العودة إلى بيوتهم انتجاعاً للراحة والاستمتاع بالحياة العائلية الرخية فلم يجد بداً من اجابتهم الى طلبهم، وخرج هو وحرسه الى الخروبة.

لم يقصد صلاح الدين بيته لانتجاع راحة او طلب مسرة ، ولم يذهب الى احدى عواصمه الخمس : القاهرة والقدس وبيروت ودمشق وحلب فيتمتع بالمجد الباذخ والنعيم الوارف ، وانما شخص الى الخروبة القائمة في الفلاة القفر ، وارسل في طلب الامداد من جميع انحاء بلاده ، ولبث ينتظر ويفكر ويراقب، وقد لج به الهم، والح عليه المرض ، وهاجت من حوله عواصف الشتاء ورياحه المتناوحة .

في تلك البقعة القصية المنعزلة قضى السلطان شهر الصيام والعيدين السعيدين وفصل الشتاء بطوله ، وهو دائب على عمله في مراس قوي وعزم فولاذي ونشاط لا يفتر . حتى اذا كان شهر ربيع الاول سنة ٥٨٦ (نيسان سنة ١١٩٠) عاد بما تجمع لديه من قوة الى المكان الذي فارقه من سهل عكا ليحاول انقاذها مرة اخرى. ولكن هذه المحاولة كانت عسيرة وعسيرة جداً . فقد اعد الفرنجة اثناء الشتاء عدداً كبيراً من آلات الدمار واقاموا الدبابات والابراج الشاهقة

ليقذفوا المدينة منها بقذائفهم المريعة ، وكان صلاح الدين يحسب ان منازلته اياهم ستشغلهم عن المدينة ، فاذا بهم وقد اضحوا من القوة بحيث استطاعوا منازلته ومواصلة الهجوم على عكا في آن واحد .

واستمر القتال في البر والبحر شهوراً طويلة خالدة في تاريخ الحرب والفروسية ، تكبد فيها الفريقان خسائر فادحة ، وأبدى الفريقان أيضاً ما يدهش ويروع من ضروب التضحية والبطولة . وكانت الأمداد ما تفتأ ترد الى سهل عكا من دمشق وحلب والموصل ، كما ترد الى عكا المحاصرة نفسها من بيروت والاسكندرية رغم ما يعترض ذلك من صعوبات كثيرة . ولكن الامداد التي كانت تصل الى الفرنجة من اوروبا كلها كانت من الوفرة والاستعداد والحماسة بحيث لا تستطيع الصمود امامها اية قوة . وقد جاء أول الامر امبراطور المانيا فردريك الأول الملقب باربروس فسلك طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكيه وتضعضع افراد جيشه بموته فمنهم من عاد الى وطنية ومنهم من التحق بالفرنجة امام عكا . واقبل بعده الكونت هنري دي شمبانيا (الكندهري) فقوى عزيمة الفرنجة بما كان معه من مال ورجال ، وما حمل اليهم من بشائر حافزة عن النجدات العظيمة المقبلة اليهم ، وما أدخل على اساليب القتال والحصار من طرق فنية ومكائد حربية جديدة . ثم وصل فيليب اوغوست (فرنسيس) ملك فرنسا في جيش لجب ، وتبعه رتشارد (الانكتار) ملك الانكليز (الانكتار) الملقب بقلب الأسد والذي احرز في هذه الحرب شهرة لا تقل عن شهرة صلاح الدين ، وكان رتشارد يقود

اسطولا كبيراً فكان له أثر فعال في تشديد الحصار على عكا .

وصمدت عكا رغم هذا كله عامين كاملين في وجه الحصار البري والبحري، رأى الفرنجة في خلالهما هولا عظيما من صبر أهلها وشجاعتهم وقتالهم المستميت .

وفي اوائل جمادى الثانية سنة ٥٨٧ (تموز سنة ١١٩١) اشتد الضيق على اهالي عكا وحاميتها ، ووهنت منهم القوى ، ولم تعد بهم طاقة على مواصلة الصمود ، فراسل اميرها سيف الدين علي بن احمد المشطوب الفرنجة في الصلح ، وقال لهم : « لما استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل ما يشاءون فوهبناهم حرية الذهاب الى حيث يريدون ، يحملون معهم امتعتهم واسلحتهم وبضاعتهم واهليهم ، وها نحن اليوم نعطيكم المدينة على ان تعاملونا بمثل ما قد عاملنا به قومكم من قبل. » فأبوا عليه ما طلب ، وحملوا على المدينة فدخلوها في ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٨٧ (١٢ تموز سنة ١١٩١) .
يقول ستانلي لين بول « وقتل ملك الانكليز رتشارد بعدئذ ٢٧٠٠ اسير من اهالي عكا دون ان يضطرب له ضمير » ويضيف الدكتور فيليب حتي على ذلك قوله : « وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لاسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس » .

ووقف صلاح الدين على رابية عالية يطيل منها النظر الى عكا الاسيرة بعد صراعها الجبار ، وقد بدا في جلاله ونبله وحزنه العميق، كأنه قد ارسل روحه في صلاة صامتة خاشعة . ولبث وقتاً طويلا وهو في موقفه ذاك ما يريم ، ولا يتحول بوجهه عن المدينة الجريحة، كأم تنظر الى قبر ابنها القتيل وفي نفسها عوامل شتى من الفجيعة

obeikandl.com

والنقمة والتمرد الكظيم. ثم لوى عنق جواده واطلق عنانه ، فانطلق يشق به الرمال السوافي ، وكأن له جناحي نسر كما أن لصاحبه اباء النسور . فعرف اصحابه انه يريد الانفراد بنفسه ، في نزهة من تلك النزهات الكثيرة التي يقوم بها الى تخوم البادية أو قلب الصحراء ، كلما ألمّ به ما يؤلمه ويشجيه ، ثم يعود منها اقوى عزيمة واصلب مراساً وأشد صبراً على اعباء الكفاح .

obeikandl.com